الهوية الأنثوية في روايتي "الباغ" و"دلشاد" لبشرى خلفان

Female identity in the novels "Al-Bagh" and "Dilshad" by Bushra Khalfan

الباحث: شفيق طه النوباني

Researcher: Shafeeq Taha al-Nobany

جامعة ظفار/ كلية الآداب والعلوم التطبيقية

Dhofar University \College of Arts and Applied Sciences

E-mail: shafeeqro@yahoo.com

https://orcid.org/ 0009-0002-7437-5123

الكلمات المفتاحية: الهوية الأنثوية، الأمومية، بشرى خلفان، الباغ، دلشاد.

Keywords: female identity, matriarchal, Bushra Khalfan, Al-Bagh, Dilshad.

الملخص

تتناول هذه الدراسة الهوية الأنثوية في روايتي "الباغ" و"دلشاد" لبشرى خلفان، فقد حازت المرأة في هاتين الروايتين مساحة مهمة أبرزت دورها في المجتمع العماني الحديث، وقد خلص هذا البحث إلى أن ملمح الأمومة يمثل جوهر الهوية الأنثوية في الروايتين المدروستين، إذ لم يمنع هذا المعطى الجوهري في شخصية المرأة من إبرازها بوصفها فاعلا أساسيا في التحولات الاجتماعية في عُمان.

اتجه الباحث في هذه الدراسة اتجاها وصفيا تحليليا، فقدّم بمقدمة تناول من خلالها الحركة النسوية وأهم ملامحها التاريخية، ثم تناول الروايتين المدروستين تناولا سريعا أعطى خلاله فكرة عامة عنهما، ثم وقف على ملمح الأمومة في رواية الباغ بوصفه ملمحا أساسيا في تشكيل الهوية الأنثوية، وتناول بعد ذلك السلسلة الأمومية في رواية "دلشاد"، إذ أدت هذه السلسلة دورا مهما في إبراز التحولات التاريخية الاجتماعية في سلطنة عمان، وختم الباحث بخاتمة أبرز من خلالها أهم نتائج البحث.

Abstract

This study deals with the female identity in the novels “Al-Bagh” and “Dalshad” by Bushra Khalfan, where women occupied an important space in these two novels that highlighted their role in modern Omani society. This research concluded that the aspect of motherhood represents the essence of female identity in the two novels studied, as it did not This fundamental factor in the woman’s personality prevents her from being highlighted as a primary actor in social transformations in Oman.

In this study, the researcher went in a descriptive and analytical direction. He presented an introduction in which he dealt with the feminist movement and its most important historical features, then he dealt with the two studied novels quickly in which he gave a general idea about them, then he dealt with the feature of motherhood in the novel "Al-Bagh" as a basic feature in the formation of female identity, and then he stopped. Regarding the matriarchal chain in the novel “Dalshad”, this chain played an important role in highlighting the social historical transformations in the Sultanate of Oman, and the researcher concluded with a conclusion through which he highlighted the most important results of the research.

مقدمة

حازت الدراسات النسوية اهتماما كبيرا في النقد الحديث، إذ جاءت هذه الدراسات في سياق محاولات لإعادة صياغة رؤى تحاول أن تتجاوز المفاهيم والانطباعات التي تشكلت عن المرأة من خلال قيادة الرجل وتكريس نظرته بما يتوافق ومصالحه على مدى مراحل التاريخ. وقد حاولت هذه الدراسات أن تؤسس للتحلل من السلطة الأبوية على وفق منظورات ومنطلقات متنوعة قوامها – في كل حال – إعادة قراءة العالم بصورة تتيح للأنثى وجودا مختلفا تحوز فيه مواقع أكثر تقدما في المجتمع، وتحقق ذاتها بالانطلاق من وجودها الإنساني، كما اقترحت بعض هذه الدراسات قراءة العالم من منطلق أنثوي صرف.

ارتبطت الحركة النسوية بحركات التغيير التي اجتاحت أوروبا منذ عصر التنوير (واتكنز، ٢٠٠٥، ص٢٢)، إذ انتبه بعض المفكرين إلى ضرورة مراجعة موقع المرأة الاجتماعي، كما انتبهت المرأة ذاتها إلى ضرورة الدفاع عن حقوقها بالانطلاق من العمل بوصفه جانبا مركزيا في التشكلات الاجتماعية. والناظر في تاريخ الحركة النسوية والنظرية النسوية التي نشأت بالانطلاق من هذه الحركة سيجد أنها تنسجم بصورة أو بأخرى مع التغيرات التي طرأت على المجتمعات الأوروبية والغربية منذ بدء العصر الحديث، غير أن من أهم ما تمسه النسوية بصورة مباشرة في انعكاساتها الاجتماعية نواة التكوين الاجتماعي المتمثل بالأسرة، إذ اعتبر بعض المنظرين للنسوية أن الأمومة تضع هوة فاصلة بين المرأة واكتسابها خاصية النوع الإنساني بصورته الكاملة" (إبراهيم، ٢٠١١، ص ١٠٧).

واجهت الحركة النسوية والنظرية النسوية العديد من المراجعات والانتقادات. وإن كانت بعض هذه الانتقادات تنطلق أصلا من وجهة نظر ذكورية متحيّزة فإن بعضها الآخر بدا منسجما غير محكوم بوجهة نظر مسبقة. فالناظر في تاريخ الحركة النسوية سيجد أنها جاءت استجابة للتحولات الاجتماعية في المدينة الأوروبية مع بدء سيطرة الطبقة البرجوازية التي أسست للفردية بوصفها قيمة جوهرية في المجتمعات الأوروبية الحديثة، حيث إن المرأة ستكون منفعلة بهذه القيمة بطبيعة الحال، وسوف تسعى إلى تحقيق ذاتها في ظل نظام اجتماعي لا تتحقق فيه مصلحة الجماعة إلا من خلال تشكله الكلي المتمثل في الدولة بما فيها من قوانين وأنظمة؛ أي أن همّ الفرد الأول هو مصلحته في حين تقوم المؤسسات على تقنين تحقيق هذه المصلحة بما يحقق مصلحة الجماعة.

لا يخفى على ناظر ما يعيشه الغرب من تفكك أسري في هذا العصر، إذ تتعمق الفردية بصورة أكبر مع مرور الزمن. والحقيقة أن من غير الممكن ربط حالة التفكك هذه بالنسوية بصورة مباشرة، غير أن من غير الممكن أيضا استبعاد النسوية بكل ما فيها من مفردات عن

تفكك المجتمعات الغربية. فالنسوية في النهاية فاعل في منظومة كبيرة جوهرها الفردية التي نمت وبرزت تجلياتها من خلال مظاهر ومفردات عديدة تمثل النسوية واحدة منها.

ولا شك أن هذه الدراسة لا تسعى إلى إجراء مفاضلة بين النظام الأبوي الذي ساد قبل بدء العصر الحديث وما جاء بعد ذلك من تحولات على المجتمعات الحديثة، فلا شك أن لكل نظام آليته ومظاهره وطبيعته، كما أنها لا تسعى إلى وصم المجتمعات الحديثة من خلال الإشارة إلى التفكك، حيث إن هذا التفكك الذي يبدو على السطح تحتويه مؤسسات راسخة في هذه المجتمعات، فدور رعاية كبار السن مثلا تقوم مكان الأسرة الممتدّة التي تحمل عبء رعاية المسنين؛ مما يسهم في تسريع عجلة الإنتاج في ظل مؤسسات كبرى تحتوي الإفرازات التي نجمت عن الفردية بوصفها محرك هذه المجتمعات الأساسي. غير أن هذه الدراسة تحاول أن تقدم نموذجا يبدو متسقا مع التشكيل الحضاري والثقافي في المنطقة العربية.

لم تمرّ مجتمعاتنا العربية بالظروف نفسها التي مرت بها أوروبا، فقد بدأت النهضة العربية الحديثة في نهايات القرن الثامن عشر، وهي نهضة لم تتشكّل من داخل المجتمعات العربية، بل بدأت من خلال الاحتكاك بالأمم الأخرى الأكثر تقدما، وهو أمر ذو أهمية بالغة في تشكيل هذه النهضة لا سيما من ناحية مدى انسجامها في داخل المجتمعات العربية والعقل العربي، فحركة التغيير التي بدأت منذ بدايات النهضة تحمل في طياتها بوادر مقاومة لفعل التغيير نفسه بحكم أن هذا التغيير كان فعلا واعيا وموجّها غير نابع من تحوّلات صهرت المجتمعات العربية في بوتقة جديدة كما هو الحال في الغرب حيث كان العمل بما فيه من حوافز اقتصادية أساسا لفعل التغيير.

لم تمثل الحركة النسوية في المجتمعات العربية – في كثير من الحالات – مظهرا تلقائيا من مظاهر التغيرات الاجتماعية والفكرية كما هو الحال في المجتمعات الغربية. وهذا ما جعل الحركة النسوية غير قادرة على تحقيق أثر عميق في المجتمعات العربية فضلا عن الفكر العربي، وبإزاء الحركة النسوية ظهرت أصوات رافضة لكل ما تدعو له النسوية، كما ظهرت أصوات متزنة تقدر الهوية الأنثوية ومكانة المرأة دون أن تنسلخ عن واقع التحولات التاريخية الجارية. ولعل روايتي "الباغ" و"دلشاد" تمثلان هذا الانسجام مع السياق التاريخي الذي ظهرتا فيه دون نشوز، إذ "يبدو الحضور النسوي حضورا لافتا للانتباه، ولكن بما لا يشي بنزعة نسوية زاعقة" (عصفور، ٢٠١٧، موقع جريدة الأهرام).

عايش المجتمع العُماني الذي تنتمي إليه كاتبة الروايتين موضوع الدراسة التحولات الاجتماعية بهدوء؛ إذ لم تؤدّ الطفرة التي عاشها الخليج العربي إلى تغيرات جذرية في طبيعة المجتمع وثقافته على الرغم من الفعل التنمويّ في الدولة. ولعل ذلك ما انعكس على الحركة

النسوية وتجلياتها في الأدب والفكر بصورة متزنة غير متطرفة في تكريس صورة مطلقة التحرر للمرأة ولا تعميق الصورة التقليدية لها بوصفها تابعا للرجل. وفي روايتي "الباغ" و"دلشاد" ما يبرز هذه الصورة في سياق استجابة طبيعية للتغيرات التي تعايشها الشخصيات في الروايتين.

بين روايتين

تنتمي روايتا "الباغ" و"دلشاد" إلى الرواية التاريخية، فقد سعت رواية "الباغ" إلى التأريخ الاجتماعي والسياسي لمدينة مسقط وسلطنة عمان منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى عقد السبعينيات، أما رواية "دلشاد" فقد اهتمت بالتاريخ الاجتماعي والسياسي لمدينة مسقط وسلطنة عمان منذ بدايات القرن العشرين حتى الخمسينيات، والواضح أن الرواية تفسح المجال لجزء ثان يتناول الحقب الزمنية التالية.

وعلى الرغم من أن الروايتين تتناولان المراحل التاريخية والأمكنة نفسها تقريبا نجد أن لكل رواية رؤيتها، ففي رواية "الباغ" يغادر راشد وأخته ريّا قرية "السراير" الواقعة في ولاية الرستاق بعد أن دبّر له عمّه مكيدة قادت إلى سجنه، إذ تمكن أخواله من إخراجه من السجن بحكم مكانتهم القبلية، ويتمكن راشد بنجاته من المكيدة من إفشال خطة عمّه لتزويج ابنه من ريّا، ليذهب معها بعد ذلك إلى مسقط، حيث ينتظم راشد في الجيش السلطاني، فيما تتزوج ريّا صديقه عليّ لتنجب منه زاهرا الذي غادر إلى الكويت لإتمام دراسته بعد الابتدائية لينخرط في الحراك السياسي في الكويت وينتهي به الأمر إلى سجن الجلالي في مسقط على إثر مشاركته في ثورة ظفار.

سجلت رواية الباغ لمرحلة تشكّل الدولة في سياق التشكيلات القبلية التي كانت تغلب على المنطقة في مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات، حيث كانت الدولة القائمة تستوعب التشكيلات الاجتماعية التقليدية وتستجيب لنقاط القوة فيها، وقد ظهر ذلك من خلال استجابة الوالي لطلب قبيلة السواعد بإخراج راشد من السجن (خلفان، ٢٠٢٢، ص ٩٥)، واستطاعت الرواية أن تصور مدينة مسقط بتنوعها الاجتماعي وطابعها الثقافي وانفعالها بالأحداث السياسية، وإذا كانت شخصيتا راشد وزاهر قد أفسحتا المجال لملامسة الأحداث السياسية وانفعالات الناس معها فإن شخصية ريّا أفسحت المجال أكثر لتناول مجتمع مسقط بتنوعه وثقافته.

ولم يغب التسجيل عن رواية "دلشاد" التي انغمست أكثر في تفاصيل حيوات الفقراء في مسقط منذ بدايات القرن العشرين، فالطفل "دلشاد" الذي لم ير أباه قط تربى في حارات مسقط الفقيرة بعد أن فقد أمه القاسية، فقد ضمته "ما حليمة" لأسرتها إلى أن وجدت أن دلشاد نضج ولم يعد من الممكن أن يقيم في بيتها مع ابنتها نورية التي اختطفها مرض الكوليرا فيما بعد، فصار من الممكن أن يعود إلى ما حليمة بعد أن عمل بالسخرة في زريبة بقر البانيان، غير أنه يتعلق في سن مبكرة بنورجيهان التي أنجبت منه مريم وماتت.

يصاب دلشاد بمرض يفقده البصر لحين، وهو يعيل مريم، مما دعاه إلى منحها لبيت لوماه؛ أحد أثرياء مسقط، إذ خشي ألا يتمكن من حمايتها، ليغادر بعد ذلك إلى الهند ويعود بعد سنين، فيما تتزوج مريم من عبد اللطيف لوماه الذي يتوفى في الحرب العالمية الثانية إثر سقوط قذيفة على باخرة رست في ميناء مسقط، لتعود مريم إلى فقرها، إذ استولى البانيان على ميراث عبد اللطيف كاملا سدادا لديونه أثناء الحرب، فيما غادرت مريم مع ابنتها فريدة إلى مطرح لتشتغل في تجارة الأقمشة، وتنال ابنتها فريدة التعليم.

اتسعت رواية "دلشاد" لشرائح وطبقات اجتماعية متنوعة، فانفتحت على الطبقات المسحوقة في مسقط، إذ أفسحت شخصية "دلشاد" اللقيط المجال لتناول المجتمعات الفقيرة في مسقط، فظهر الفقر المدقع، وغياب الرعاية الصحية التي تؤدي إلى زيادة أعداد الوفيات، كما ظهرت الحياة البسيطة التي تنطوي على ترابط أكبر في المجتمع، وكان دخول شخصية مريم إلى بيت لوماه بابًا للدخول إلى المجتمعات الأثرى في مسقط، حيث أبرزت الرواية حياة هذه المجتمعات بما فيها من تقاليد وما فيها من تشوهات. وقد ظهرت مدينة مسقط بوصفها مدينة ساحلية حاوية لأعراق عديدة من عرب وبلوش وهنود.

وإذا كانت شخصيتا راشد وزاهر في رواية الباغ اتصلتا ببعض الأحداث التاريخية المفصلية، فإن شخصية عبد اللطيف لوماه كانت الأكثر تفاعلا مع الأحداث التاريخية في السلطنة، فقد كان من تجار مسقط الكبار، مما سمح بتناول بعض الأحداث التاريخية الدالة كتولي السلطان سعيد بن تيمور للحكم عام ١٩٣٢م (خلفان، ٢٠٢٣، ص ٢٠١)، وأثر الحرب العالمية الثانية على التجارة في مسقط، فالرواية تسجل للأحداث التاريخية والاجتماعية في سلطنة عمان منذ نهايات عشرينيات القرن العشرين حتى خمسينيات القرن نفسه.

الهوية الأنثوية والأمومة في رواية "الباغ"

لا يخفى الطابع التاريخي في روايتي "الباغ" و"دلشاد"، وعلى الرغم من هذا الطابع التاريخي بدا الوجود الأنثوي طاغيا في كلا الروايتين، ولعل ذلك لا يتوافق مع طبيعة التاريخ السياسي الذي لم تظهر المرأة فيه في الواجهة في الأغلب الأعم، "فقد اتسمت الأدوار التي قدرت للنساء بكونها أدوارا صامتة: الأمومة وصناعة المنزل" (ديوبي وبيرو، ٢٠٠٥، ص ١١)، والحقيقة أن المرأة في كلتا الروايتين موضوع الدراسة لم ترتبط بالتاريخ السياسي بصورة مباشرة، وإن كانت جزءا أساسيا من تشكيل التاريخ الاجتماعي.

تناولت خلفان في الروايتين نمطين للتشكل الأنثوي في المجتمع العماني، وهما نمطان على الرغم من اختلافهما تشكلا في إطار هوية أنثوية واحدة ترتبط بالمجتمع العربي العماني بصورة خاصة، فشخصية ريّا لم ترتبط بأي حدث سياسي بصورة مباشرة، غير أن الأحداث

السياسية انعكست عليها بقسوة، إذ كان سفر ابنها زاهر إلى الكويت بغرض الدراسة ذا أثر كبير عليها، غير أن انضـمامه إلى ثورة ظفار وانتهاء أمره في سـجن الجلالي جعلها فريسـة الأحداث السياسية التي لم تشتبك بها مباشرة.

بعد أن غادر راشد وريّا قرية السراير، أقاما في مسقط، وتزوجت ريّا صـديق أخيها علي الذي يعمل كاتبا في "برزة السيد"، وإذا كان علي هو الذي علم راشدا القراءة والكتابة وأطلعه على بعض الأحداث التاريخية (خلفان، ٢٠٢٢، ص٨٠)، فإن ريّا تعلمت القرآن من أبيها، فلفتت انتباه العودة بعد إقامتها في مسقط مع أخيها، وصارت تعلم بنات البيبي في بيت "الباغ" الذي اندمجت فيه، غير أن فعل التعليم فيما بعد أصبح تعبيرا عن كينونة ريّا وهويتها.

كان سفر زاهر إلى الكويت لإتمام تعليمه بعد إتمام الصف السادس في السعيدية ذا أثر عميق في نفس ريّا التي افتقدت إلى ابنها الوحيد، غير أن البيبي أخرجتها من الحالة الأقرب إلى الاكتئاب بعد غياب زاهر، فبعد أن اسـتطاعت تعليم مَلَك ابنة زوجة الزمار تكرّسـت في مسـقط بوصـــفها معلمة لقراءة القرآن الكريم وقصـــص الأنباء، "ففي غياب زاهر عرفت بيوت مســـقط ودروبها خطوتها الخجلى، وصوت تلاوتها العذب" (خلفان، ٢٠٢٢، ص٢٥٢).

عبّر توجه ريّا إلى التعليم عن شخصيتها، إذ سمح زوجها لها بممارسة هذا العمل، غير أن هذا التوجه لم يكن في الحقيقة إلا مشـــاغلة للذات عمّا تولد في داخلها من حزن نتيجة ابتعاد ابنها زاهر، فذات ريّا كانت سـتتجه إلى جوهرها الأمومي لو بقي زاهر إلى جانبها؛ أي أن السـرد الروائي أبرز هذا التوجه إلى التعليم بوصفه مشاغلة للذات عن هذا الغياب، ولو أن شخصية ريّا توجهت إلى التعليم دون أن يكون ذلك ناجما عن غياب زاهر لعبّر عن شخصيتها بصورة أكبر.

لقد مثلت الأمومة جوهر شخصية ريّا؛ والحقيقة أن ارتباطها بشخصية أخيها راشد فضلا عن ارتباطها بشـخصـية زاهر لا ينفصـل عن طبيعة الأمومة، فقد بدا هذا الشـعور الأمومي قبيل إصـابة راشـد في نزوى عام ١٩٥٧م، إذ انشـغلت به وتذكرته قلقة بعد حلم سـنتناوله لاحقا ليأتيها نبأ إصـابته بعد مدة قليلة، وحين جاءها النبأ أسـرعت مع زوجها وابنها إلى المسـتشـفى، لتسـتقبله في بيتها بعد ذلك للعناية به حتى الشـــفاء، والمعروف أن الأمومة فعل لا ينفصـــل عن العناية والرعاية بطبيعته (نورتورك، ٢٠١٦، ص٢٠).

ربطت المؤرخة الفرنسـية "إيفون كنيبيلير" الهوية الأنثوية بالأمومة، وقد عارضـت بذلك "سـيمون دي بيفوار" التي رأت أن الأمومة تضـع هوّة فاصـلة بين المرأة واكتسـابها خاصـية النوع الإنساني (إبراهيم، ٢٠١١، ص ١٠٦-١٠٧)، ولعلي لا أجانب الصواب إذا قلت إن ربط الأمومة بالهوية الأنثوية يمثل امتدادا لتقدير صـــيغ الحياة الجمعية في حين أن إبراء الهوية الأنثوية من

الأمومة امتداد للفردية بما فيها من تجاوز لمفهوم الأسـرة. والناظر في الشـخصـية الأنثوية التي أسست لها رواية الباغ سيجد أنها شخصية تنمو في إطار الأسرة وتستمد وجودها منها.

لم يتوقف المعطى الأمومي في بناء شـــخصـــية ريّا على ارتباطها ببنية الحدث وبقية عناصر الرواية، بل ظهر ظهورا رمزيا جاء من خلال حلم ريّا الذي اختلط بالحقيقة، إذ استيقظت لتجد يدها منقبضة على حفنة من السدر بعد انتهاء الحلم الذي جاءتها فيه امرأة إلى البيت، حيث كانت تسـمع صـوت بكاء يخترق الجدران، ورأت على الأرض فتاة مسـجّاة طلبت منها المرأة أن تولدها، فانصـاعت ريّا لأمرها، وأخذت الطفل وأرضـعته؛ "كان الطفل يرضـع بشـراهة، والحليب يزداد غزارة ويفيض. فاض الحليب حتى سـال وغطى ثياب الأم ولم تكترث، سـال حتى كسـاها فصارت بيضاء متوهجة" (خلفان، ٢٠٢٢، ص ١٥٧-١٥٨).

والواضـح أن الحلم ينطوي على نبوءة تتعلق بأخيها الذي أصـيب في اليوم نفسـه وبابنها الذي انتهى إلى سجن الجلالي بعد سنوات، إذ وجدت بعد استيقاظها أن زاهرا وجد تحت البيذامة صـــرة النقود التي وهبها لها راشـــد قبل مدة. ولا يخفى ما في الحلم من دلالات واضـــحة على الأمومة، إذ سال الحليب منها بغزارة، فالأمومة شعور فياض، غير أنه شعور مشوب بحزن شديد يملأ أرجاء البيت وينفذ من الجدران، فسوف يبتعد أولئك الذين تتوجه لهم ريّا بمشاعرها الأمومية.

انتهت شـخصـية ريّا في نهاية الرواية إلى حالة من الخسـران الشـديد في ظل الظروف التاريخية التي عاشـتها، وهو خسران ناجم عن الفقد الذي عاشـته نتيجة ابتعاد أخيها أولا ثم ابنها زاهر، وعلى الرغم من هذا الخســران الذي انتهت إليه تشــكلت لها هالة أنثوية أمام زوجها عليّ الذي بقي يشـــعر بوجود هوّة بينه وبينها: "يحبها لكنه لا يفهمها أحيانا، تحمل عِلمها في يد، وهواجسها في اليد الأخرى، مسلمة بقضاء الله، ولا يفتنها إلا ما اتصل بزاهر أو راشد" (خلفان، ٢٠٢٢، ص ١٦٦).

والناظر في طبيعة السرد الروائي بصورة عامة سيجد أن عليّا لا يمثل شخصية مبأّرة في الأغلب، فهي شخصية تتوافق مع راشد لمرحلة لتصب فيما بعد على هامش ريّا، كما أنها تبرز في سـياق تناول شـخصـية زاهر بحكم علاقته بريا، فوجهة النظر الناتجة عن تبديلات التبئير (انظر: جنيت، ١٩٩٧، ص ٢٠٥) تتجه نحو ريّا، ومن الممكن النظر إلى بعض التركيز الذي انصب على تعليم عليّ راشدا الكتابة على أنه شكل من أشكال المهر المعنوي لريّا التي تزوجها فيما بعد. وطبيعة السرد هذه في نهاية المطاف تسهم في تأكيد الهالة الأنثوية التي رسمت حول ريا.

مثلت شـخصـية ريّا حالة أمومية أسـست لهويتها الأنثوية، وهي حالة جعلتها منفعلة بالتاريخ في كل مراحلها، بل إنها لم تكن على قدر كبير من التأثير إزاء ما يمثل جوهر

شـخصـيتها، إذ لم تتمكن من التأثير على زاهر ليمتنع عن السفر إلى الكويت، فكأن شـخصـيتها تحيا بغيرها دون أن تتمكن من تحقيق تأثير فيها يحافظ على هويتها، هذا على الرغم من الأثر الذي حققته بامتهانها تعليم القرآن الكريم وقصص الأنبياء.

تضع شخصية ريّا القارئ أمام سؤال مهم يتمثل في مدى تمثيلها لحالة الانسجام الداخلي فضــلا عن ذلك الانســجام مع المجتمع والمعطيات المحيطة بها؟ والواضــح أن التوازن الداخلي الذي أقامته ريّا بمسـاعدة مجتمعها المحيط بها لم يصـمد أمام الانتكاسـات التي منيت بها، ولعل ذلك ما دعا بشــرى خلفان إلى التعامل مع نمط شــخصــية أخرى في رواية "دلشــاد" تتقاطع مع شخصية ريّا وتحافظ على بعض سمات الهوية الأنثوية لديها، غير أنها أكثر اقترابا من الصيغة النموذجية التي ترتبط بالتغيرات الاجتماعية.

الهوية الأنثوية والسلسلة الأمومية في رواية "دلشاد"

على الرغم من أن رواية "دلشـاد" أبرزت شـخصـية "دلشـاد" بوصـفها بطلا مضـادا إلا أن الســلســلة الأمومية في الرواية منذ "نورجيهان" زوجة دلشــاد حتى فريدة ابنة مريم مثلت البطل بمفهومه الإيجابي، فقد أقامت هذه السلسلة الأمومية حالة من التجدد والولادة بما فيها من صفات أنثوية، إذ تنحّت شخصية "دلشاد" بعد أن فقدت الثقة بنفسها وقدرتها حين أصيبت بالعمى، وكان غياب "دلشاد" بمثابة موت حين تخلى عن مسؤوليته تجاه ابنته مريم ومنحها لبيت لوماه.

لم تمثل "نورجيهان" زوجة دلشــاد أكثر من حالة أنثوية خالصــة البراءة، فقد تعلق بها دلشاد وهي طفلة تبيع الحلوى، وعلى الرغم من كونها بلوشية قبلت أمها بتزويجها لدلشاد العربي، ولم تمض مدّة حتى حملت وتوفيت فور وضــعها ابنتها مريم بعد أن "خرج الطفل من الطفل" (خلفان،٢٠٢٣، ص٤٥)، فكأن الطفولة لم تستوعب مفهوم الأمومة على الرغم من تحقق صفات الأنوثة فيها بنظر دلشاد، وعلى الرغم من تحقق هذه الصفات من الناحية الفيسيولوجية.

لم تتعامل مريم في رواية "دلشــاد" مع الأطر الاجتماعية نفســها التي تعاملت معها "ريّا" التي تنتمي إلى عائلة معروفة ذات مكانة في قرية "الســراير"، بل انتمت مريم إلى "دلشــاد" اليتيم في بيئة تعاني فقرا شـديدا، وتعاملت مع فضــاء واسـع وفقير في الوقت نفسـه بقدر من التلاحم الاجتماعي الذي أشــعرها أن الحارة كلها كانت بيتها (انظر: خلفان، ٢٠٢٣، ص ٣٢٥)، وبعد أن دخلت "بيت لوماه" ارتبطت برجل تاجر بقي متعلقا بالسـفر، فلم يأبه بالتقاليد الاجتماعية التي تتقيد بها الأســر الثرية عادة، بل أقبل على الزواج منها على الرغم من معرفته أنها ابنة دلشــاد اليتيم اللقيط الفقير.

أتاحت طبيعة شـخصـيتي مريم وعبد اللطيف إبراز الهوية الأنثوية الخالصــة عند مريم، كما أتاحت إبراز الهالة الأنثوية بصــورة مغايرة عما ظهرت فيها عند "ريّا" في "الباغ"، فهي هالة

أنثوية تُستمد من كونها أنثى بالدرجة الأولى، إذ انشدّ عبد اللطيف إلى جمال "مريم" أولا، وقامت بينهما علاقة عاطفية برز التعبير اللغوي عنها بوضـــوح، فقادت هذه الهالة عبد اللطيف إلى التقرب أكثر من مريم (انظر: خلفان، ٢٠٢٣، ص ٢١٢).

أسهمت الأمومة في تشكيل شخصية مريم، غير أن أمومة مريم لم تمثل حالة التزام كامل بالموروث الأبوي المرتبط بالانصـــياع لقواعد المجتمع، وكما هي العادة في حالات التجاوز للموروث الاجتماعي نبع تجاوز مريم من ظروف خاصـــة فرضـــت عليها ذلك، فبعد وفاة زوجها عبد اللطيف كان لزاما عليها أن تجتهد في سـبيل العيش بكرامة، فغادرت مسـقط وأنشـأت متجر أقمشـــة في مطرح، وبدأت بالتجارة من خلاله، لتســـجل بذلك لأشـــكال التحولات الاجتماعية في سلطنة عمان في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية.

واجهت مريم صـعوبات اجتماعية إثر عملها في التجارة في سـوق مطرح، حيث اشـتكاها تجار الســـوق إلى الوالي بحجة أنها امرأة تتاجر بين الرجال، فأمرها الوالي بأن تقيم في دكانها وتسـتأجر صـبيا يمشـي بحاجتها، (خلفان، ٢٠٢٣، ص ٤١٤) غير أن تجاوز مريم للموروث لم يتوقف عند عملها في السوق، بل مثّـل تعليم ابنتها فريدة للكتابة أهم عنصر تجديدي في السلسلة الأمومية التي أقامتها الرواية.

فور إقامة مريم في مطرح ســـعت لتعليم ابنتها فريدة لدى الماســـتر علي، إذ بدت مريم حريصـــة على تعليم ابنتها على أحســـن وجه ممكن، فدفعت له خمســـة قروش من الفضـــة، فاســـتكثرها، "فهمســـت له: ولك ضـــعفها إن أجادت الكتابة قبل إتمام الحول" (خلفان، ٢٠٢٣، ص٣٦٨)، والملحوظ أن مريم كانت بحاجة إلى تعليم ابنتها بحكم عملها في مجال التجارة، دون أن يلغي ذلك التحولات الاجتمـاعيـة المرتبطـة بـالتعليم ومـا يرتبط بـه من أبعـاد تتعلق بـالوعي والثقافة، فمن المعروف أن العمل بصورة عامة كثيرا ما يمثل مجرى التحولات الاجتماعية.

تعلمت فريدة في مســـقط قبل وفاة أبيها القرآن الكريم (خلفان، ٢٠٢٣، ص ٣٠١)، غير أنه لم يتقبل أن تتعلم القراءة والكتابة خشـــية أن تكتب الرســـائل للرجال، وحين تعلمت القراءة والكتابة طلبت منها أمها مريم أن تـــُـــقسم بألا تكاتب رجلا أبدا (خلفان، ٢٠٢٣، ص ٣٧٤)، وحين أرسل لها قاسم ابن معلمها الكتابةَ رسالةً ترددت كثيرا في الرد عليه، بل إن الرواية انغلقت على هذا الموقف الذي اختلط فيه المرض بالموت، ســـواء أكان هذا الموت متعلقا بموت فريدة التي بدا أنها أصـــيبت بحمّى خطيرة، أم بذكرى موت أبيها الذي بدا ذا أبعاد رمزية: "أغمض عيني، فأرى كف أبي ينفتح، فتتساقط الياسمينات منه، وأرى أمي تضمني تحت عباءتها، والرجال يحملون جثته، ويذهبون بها إلى المأتم ثم إلى المقبرة" (خلفان، ٢٠٢٣، ص ٤٨٧-٤٨٨).

كان موت الأب عاملا موضوعيا في تعلم فريدة الكتابة، وفي عمل مريم في التجارة، وفي تعميق فاعلية الأمومة، إذ احتضـــنت مريم ابنتها وحاولت أن تقوم بدور الأب على طريقة الأم، ولعل من المجازفة أن نحكم على موت الأب هنا بأنه موت رمزي على الرغم من كل ما لحق موته من تغيرات، فتعليم فريدة الكتابة غاية لا تمسها أي شائبة، فهي غاية لا تتعارض في النهاية مع إرادة الأب فيما لو توفر له قدر أكبر من الوعي.

لم تلتزم مريم بصـــورة كاملة بإرادة الأب التي غيبها الموت، فالأحداث في النهاية تحتكم إلى الظروف، غير أن موت الأب هنا يمثل انقطاعا نســـبيا عن الموروث، وبداية لتحولات اجتماعية، إذ صـــار لا بد من أن تأخذ المرأة دورا يتناســـب مع موقعها الناجم عن غياب الأب، لتؤدي في النهاية دورها في صـــناعة التاريخ الاجتماعي، مما ســـيؤدي لاحقا إلى أداء دور في سيرورة التاريخ بصورة عامة.

انطوى هذا التحول الذي ترسـمه المرأة على عوامل موضـوعية نابعة من داخل المجتمع العماني، إذ لم يأت انصـــياعا لفواعل من خارج المجتمع ســـواء أكانت اســـتعمارية أم نابعة من مثاقفات قائمة على الصـدفة، وإن كان العامل الاقتصـادي حاضـرا بقوة يبقى هذا العامل محكوما بتقاليد المجتمع التي تنطوي على قدر من المرونـة، إذ لم يكن توجه فريدة توجها ثوريا ضـــد التقاليد، وإن كان سـيؤدي في النهاية إلى تحولات سـتبدو ثورية مع مرور الزمن. ولعلنا لا نحتاج إلى كثير اجتهاد لنربط هذا التناول بطبيعة سـيرورة التغيير في سـلطنة عمان، إذ تبنّت السـلطنة توجها هادئا في التنمية يتناســـب مع مقومات البلاد ولا ينســـاق بفعل ثروة النفط وراء بنيان اقتصـادي ضـخم وهش في الآن نفسـه، وهذا ما ينعكس بطبيعة الحال على المجتمع وعلى نواته الأساسية المتمثلة في الأسرة.

مع دخول مريم إلى سوق مطرح بدأت تتلاشى الهالة الأنثوية التي تشكلت حول "ريا" في "الباغ"، فمريم حين اندمجت في مجتمع التجارة بدت أكثر عملية من "ريا"؛ أي أن حركة "ريا" في المجتمع بقيت محصـــورة بفعل التعليم بحكم هويتها الأنثوية، أما مريم فقد ظهرت في مجتمع التجارة، وفي سـوق مطرح على وجه التحديد، حيث يبدو الوجود الذكوري طاغيا، غير أن الرواية اســتطاعت أن تســتكمل الهوية الأنثوية من خلال ســمات أنثوية أمومية تبدو أكثر ثقة بقدراتها الإنســـانية التي لم تســـتبعد التركيب الاجتماعي القائم، فلم تنطلق من منطلقات ثورية تنســـف الموروث أو تتعامل معه بشــكل من الاســتخفاف، وهذا ما يتوافق مع توجهات النســوية ما بعد الحداثية، فبدلا "من التعامل مع قضـــايا المرأة من المنظور الحقوقي العالمي أصـــبح هناك اتجاه لاحترام الخصوصيات الثقافية" (رافع، ٢٠٢٢، ص ٢١).

لم تقتصر رواية الباغ على شخصية ريا بوصفها شخصية أنثوية، كما أن رواية "دلشاد" لم تقتصر على الشخصيات المذكورة، غير أن موضوع الهوية الأنثوية اقتضى التركيز على هذه الشخصيات بحكم أنها شخصيات يتجه نحوها التبئير في الروايتين، فإذا كانت شخصية "ريا" تتجه نحو الامحاء مع تقدم أحداث الرواية، فإن السلسلة الأمومية في "دلشاد" تتجه نحو البروز أكثر مع تقدم الأحداث، هذا إذا تجاوزنا نهاية الرواية التي بدت فيها فريدة مريضة تعاني من حمى شديدة. ولا شك أن هذا البروز الذي مثلته هذه السلسلة يضع المرأة في موضع مركزي في مجتمع الرواية.

وقد قدمت خلفان من خلال هذه السلسلة بديلا مضمرا للسلسلة الذكورية التي عادة ما ترتبط بالرجل بوصفه وصيّا على النسل، فعادة ما ينسب الأبناء إلى آبائهم. وإن لم تكن الرواية في أية حال قد نسبت إحدى حلقات السلسلة الأنثوية إلى الأم فإن السرد الروائي كان يقودنا شيئا فشيئا إلى تشكيل هذه السلسلة الأنثوية الفاعلة، حيث تمثل المرأة مركزا تتشكل من خلاله الثقافة الاجتماعية عبر الزمن، دون أن تلغي الضمير الأبوي الذي بقي حاضرا في الذهن باستمرار.

خاتمة

برزت الدراسات النسوية في العصر الحديث لتتسق مع الحركة النسوية الداعية إلى تحرر المرأة واستقلالها، وقد ظهرت بإزاء ذلك حركة نسوية تدعو إلى تمرد سافر على الموروث في العالم العربي، ومن خلال روايتي "الباغ" و"دلشاد" يمكننا ملاحظة تركيز كبير على الهوية الأنثوية بصورة موضوعية تنسجم مع المعطيات الاجتماعية والثقافية في المنطقة العربية وفي سلطنة عمان على وجه الخصوص، فلا تتمرد على الموروث والتقاليد من خلال فعل ثوري سافر، كما أنها تسعى إلى التغيير والتجدد من خلال الظروف الموضوعية التي يفرضها السياق التاريخي والاجتماعي والثقافي فضلا عن الظروف التي تتعامل معها الشخصية الممثلة للهوية الأنثوية.

مثلت شخصية ريا حالة نمطية، فمثلت سمة الأمومة جوهر شخصيتها، وحين ابتعد عنها أخوها وابنها وصلت إلى مرحلة الانهيار، فهي تستمد وجودها ممن تتحقق من خلالهم سمتها الجوهرية المتمثلة بالأمومة، ولعل رواية "دلشاد" حاولت استكمال أو استبدال السلسلة الأمومية بشخصية ريا التي لم تتمكن من الصمود أمام الصعوبات التي واجهتها، فتمكنت مريم التي بدت نشأتها أبعد عن قيود التقاليد أقرب إلى تشكيل نموذج مختلف لم يستبعد الأمومة التي مثلت حافزا من أجل التجدد في ظل الصعوبات التي واجهتها، إذ اشتغلت في التجارة التي استطاعت أن تبرع فيها وتؤسس لوجودها في المجتمع.

وبدت فريدة التي تعلمت القراءة والكتابة حلقة مهمة في سياق التحولات الاجتماعية في سلطنة عمان، فقد كان تعلمها للكتابة تجاوزا لسلطة الأب الذي عادة ما يسعى إلى المحافظة على التشكلات الاجتماعية القائمة، كما لبى فعلُ التعليم بالنسبة لفريدة الحاجة التي فرضتها الظروف الموضوعية التي عاشتها مع أمها مريم، ولا شك أن هذا التحول لن يبقى مقصورا في أثره على التعليم في ذاته، بل سينعكس على التعامل مع المجتمع وأفراده بما في ذلك علاقة المرأة بالرجل.

المصادر والمراجع

إبراهيم، عبد الله. (٢٠١١). السرد النسوي: الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية، والجسد. (ط١). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. دار الفارس. عمان.

جنيت، جيرار. (١٩٩٧). خطاب الحكاية: بحث في المنهج. (ط٢). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.

خلفان، بشرى. (٢٠٢٢). الباغ. (ط٦). منشورات تكوين. الكويت.

خلفان، بشرى. (٢٠٢٣). دلشاد. (ط٩). منشورات تكوين. الكويت.

ديوبي، جورجيز، وبيرو، ميشيل. (٢٠٠٥). كتابة تاريخ النساء. ضمن كتاب: بانتل، بولين شميت (محرر): موسوعة تاريخ النساء في الغرب، ج١. ترجمة: سحر فراج. (ط١). المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.

رافع، علياء رضاه. (يناير،٢٠٢٢). *المجلة الدولية لدراسات المرأة والطفل*، م٢، ع١، ص ص ٢٠-٣٧. النظرية النسوية: ما بعد الحداثة واستشراف المستقبل.

عصفور، جابر. (يوليو، ٢٠١٧). جريدة الأهرام، ع٤٧٧١٦. الباغ. عن موقع الجريدة.

نورتورك، نسلي خان. (٢٠١٦). الأمومة والعناية بالطفل في الإسلام. ترجمة: وليد عبد الله القط ومحمد عبد الغني إبراهيم. دار الأرقم. إستنبول.

واتكنز، سوزان ألس، ورويدا، مريزا، ونجويز، مارتا رود (٢٠٠٥). أقدم لك: الحركة النسوية. (ط١). ترجمة: جمال الجزيري. المجلس الأعلى للثقافة القاهرة.

References

Ibrāhīm, ʿAbdullāh. (2011). Al-sard al-Niswī: al-thaqāfah al-abawīyah, al-huwīyah al-unthawīyah, al-jasad. (T1). Al-Muʾassasah al- ʿArabīyah lil-dirāsāt wa-al-nashr. Bairūt. Dār al-Fāris, ʿAmman.

G. Genette. (1972). Figures III, coll. Poetique, ed.seuil.

Khalf ān, Bushrâ. (2022). Al-Bāgh. (T6). Manshūrāt Takwīn. Al-Kuwayt.

Khalf ān, Bushrâ. (2023). Dalshād. (T6). Manshūrāt Takwīn. Al-Kuwayt.

Georges duby and Michelle perrot (1990). Writing of women history. In the book: Pauline Schmitt Pantel (Editor). A history of women in the west. Giuvs. Roma.

Rāfiʿ, ʿAlyâʾ Riḍāh. (January 2022). Al-Majallah al-Dawlīyah li-dirāsāt al-marʾah wa-al- ṭifl. 2(1). Pp20-37. Al-Naẓarīyah al-nisw īyah: Mā baʿda al- ḥadāthah wa-istishraāf al-mustaqbal.

ʿAṣfūr, Jābir. (July 2017). Jarīdat al-Ahrām. (47716). Al-Bāgh. From the site of magazine.

Nūrturk, Nasli Khān. (2016). Al-Umūmah wa-al-ʿināyah bi-al-ṭifl fī al-Islām. Translated by: Walīd ʿAbdullāh al-Qiṭ wa-Muḥammad ʿAbdulghanī Ibrāhīm. D ār al-Arqam. Istanbūl.

Susan Alice Watkins, Mrisa Rueda, Marta Rodrigues. (1999). Introducing Fimensim. Duxford, Cambridge. Icon Books UK.